منعطف الكورونا وإمكان «إنسانيّة المستقبل» أو تجديد الحضارة

المنصف بن عبد الجليل ■

شيءٌ من الأسئلة عن الكورونا ضمن الأوبئة والطواعين

اهتمّ الباحثون بالأمراض والأوبئة والطواعين اهتماماً مختلفاً، وقد عبّر كلّ اتّجـاه عن غاية علميّـة، وتُغْنَـى جميعها بفهم الظاهرة ومعالجتها والنفاذ من ثمَّ إلى استكشـاف الجسم البشريّ في مرحلة أولى، وإلى الذات الإنسـانيّة فرديّـة وجماعيّة في مرحلة تاليـة. وكشـفت الاتجاهات اهتمـام المؤرّخيـن ممّن عنـوا بتاريخ الأمراض والطواعين عموماً[1]، كما جلّت انكباب الإخباريين القدامى[2]

1 ـ Stephen Novak, Pandemics in History: A Short Bibliography, in. https://blogs.cuit.columbia.edu/hslarch/pandemics-in-history-a-short-bibliography/; Thomas McKeown, The Origins of Human Disease, 1st ed. Basil Blackwell, Oxford, UK, Cambridge, Massachusetts, USA, 1988; Lois N. Magner, A History of Infectious Diseases and the Microbial World, 1st ed. Praeger, London, 2009; William H. McNeil, Plagues and Peoples, Anchor Books 1st edition, New York, 1976.

عبد الخالق بن رجب ونجاة الغزواني، علم الأمراض في الطبّ العربي الإسـلامي، منشـورات بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 2010. محمد حسن، ثلاث رسائل أندلسيّة في الطاعون الجارف، تحقيق ودراسة: بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 2013.

2 ـ انظر مثلاً الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، دار المعارف، القاهـرة، 1977، الجزء الرابع، ص60 - 66. ويمكن أيضاً اسـتقراء =

■ بروفيسور في الدراسات العربية والإسلامية جامعة سوسة، تونس.

خاصّة على ذكر «الأوبئة والطواعين والجوائح والموتان» ضمن أحداث السنوات التي فصّلوها في مدوّناتهم، وانضاف إلى هــؤلاء وأولئك أهلُ الطب والحكمة، ممّن وصفوا أحوال المصابين والمرضى، وســاقوا ـ فيما ســاقوا ـ أنواع العلاج والأدوية التي ركّبوها بمهارة الصيدلاني[3]، وظهر منذ القديم اتّجاه آخر لا يقلّ نفعاً ولا أهميّة عن المجالات السابقة، وهو اتّجاه الفيلسوف[4] وحملة الأديان إلى الناس، فكان لكلّ مــن الفريقين تفســيرهُ الأخلاقي على الأغلــب، والوجودي البحت، واللاهوتي. ولم ينقطع هذا الجهد الاستقرائي المتنوّع عن بحث طريف لاحق، وصل ما بين نشــأة الوباء وانتشــار آثاره مــن ناحية، وأطــوار الدولة والعمران[5] من ناحية أخرى. ثــمّ ازداد الوعي بتلك الإشــكاليّة فانصبّ اهتمام بعض الفلاسفة المحدثين خاصّة بعلاقة الوباء بالسلطة، كما يظهر في كتابات فوكو. ولــو قلّبنا الفكــرة الخلفيّة التــي يمكن اســتدراجها من هــذه الجهود المتراكمة عبــر التاريخ وفي عصرنا الراهن لوقفنا علــى رأي هو تأثير الأوبئة والطواعين في العمران البشــريّ تأثيراً بنيويّاً يقضي بتبدّل الحضارات ونشأة تعاقبهــا، على أيّ وجه كان التعاقــب. والمهمّ الداعي إلى النظر مســألة ذات وجهين: أوّلهما: ما دلالة هذه الأوبئة والطواعين ضمن الثقافة التي نشأت فيها، أو وصلت إليها بأيّ طريق ممكن؟ وثانيهما: ما المنعطف الحضاري الذي أسّسته تلك الأوبئة والطواعين لتبدأ عهداً جديداً من انتظام الإنسانيّة في محيطها؟

لا يخرج أمر الكورونا ـ فيما نشاهد اليوم بيننا ـ عن هذا الإطار. وبغضّ النظر عن توصيفه على لســان المجتمعات المعاصرة بين أن يكون وباءً أو ألّا يكون، ورغم ما نشــره من آفة مَرضيّة أو إنكار مرضيّتــه، وأيّا كانت رجاحة

= أخبار الجوائح والطاعون من صنــف آخر من المدوّنات والمجاميع التــي تحوي النوازل، وكتب الفقه المتفرّقة والمتعددة عند أهل المذاهب الإسلاميّة.

3 ـ انظر مثلاً ابن الجزّار، كتاب طبّ الفقراء والمســاكين، تحقيق الراضــي الجازي وفاروق عمر العسلي، منشورات بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 2009.

4 ـ كثيرة هي الأعمال التي نشرها الفلاسفة المعاصرون. راجع مثلاً كتابات:
Michel Serres, 1990; Pascal Pic, Bayung-Chul Han, Peter Sloterdijk, Harald Weler, Giorgio Agamben, Alain Badiou, Slavoj Zizek, Mohamed – Chérif Ferjani, Fethi Meskini, Edgar Morin.

5 ـ ابن خلدون، المقدّمة، تحقيق عبد الواحد وافي، مطبعة دار الشعب، القاهرة، (د.ت.) ص271 - 272.

وصفه بـ «الجائحة» أو تهافت ذاك التقدير؛ فإنّه كان الحدث الأبرز منذ أن قرّرت الدول المعاصرة كلّها ـ أيّا كانت منزلتها واتّجاهها وتقدّمها وعلوّ شأنها في التطبيب والعلوم ـ غلقَ أبوابها، ومنعَ حركة مجتمعاتها، وشلَّ التواصل شلّا لم يسبق، وخَشِيَتِ الإنسانيّةُ جمعاء على نفسها من أمر فيروس رهيب لا يُرى، وعمّ الخوف من كثرة الوفيات وانتشار الموت، وأَعلنت الأمم ـ بما فيها الصين ـ أنّ التحصّن لا يكون إلّا **بالحجر الذاتي** وهو حجر قسري، لا خيار لمن أراد النجاة إلّا لزوم البيت، والمداومة على **التباعد، ووضع اللثام** على الفم توقّياً من العدوى السارية في كلّ المحيط، حيث لا ترى الجرثومة النشيطة. وهال المسلمين أن **فرغ** البيت المعمور، و**أغلقت** المساجد، و**عطّلت** شعائر التراويح في رمضان، ولم يبق في الخارج سوى أهل السلطة ممّن بيدهم القرار والمراقبة والكفاءة الطبيّة. وخيّل إلى رأس المال منذ نشأة الليبراليّة أنّه لا يخضع لقيود الحجر، ولا للسيطرة، ولا للمراقبة، فلم يكن ذاك ممكناً ولا متيسّراً. وتأثّر معاش الناس وأهل التجارة والصناعة أيّما تأثّر، فبادر السياسيّون يطلقون على فيروس الكورونا عبارة هي بمثابة التوصيف ذي الدلالة البليغة، وساقوا في خطبهم الدوريّة أنّ الإنسانيّة كلّها هي بصدد معاينة **حرب** شرسة، ولعلّهم محقّون في توصيفهم، وهم يعدّون الفيروس **عدوّاً** «استثنائيّاً». لذلك نرى العنوان الذي تخيّره سلافوي جيجيك (Slavoj Zizek) لكتابه عن الكورونا وجيهاً وذا دلالة عميقة "Pandemic: Covid-19 Shakes the World"[6]. وبالفعل هزّ فيروس الكورونا العالم بأسره، وما زال. وظهر ارتباك الدول في قراراتها خلال الموجتين الأولى والثانية. وينتظر الجميع موجة ثالثة، ومن أدرانا، فقد تتتالى موجات أخرى، وقد يتحوّل الفيروس بما يفسد أمر التلاقيح التي يتنافس عليها أحد عشر مخبراً في العالم، وتتصدّر شركتان أمريكية وألمانيّة

لا يخرج أمر الكورونا ـ فيما نشاهد اليوم بيننا ـ عن هذا الإطار. وبغضّ النظر عن توصيفه على لسان المجتمعات المعاصرة بين أن يكون وباءً أو ألّا يكون، ورغم ما نشره من آفة مَرضيّة أو إنكار مرضيّته.

6 ـ Slavoj Zizek, Pandemic! Covid-19 Shakes the World, New York, O/R Books, 2020.

معاً وأخرى روسيّة كلّ الشركات الكبرى المتنافسة على تصنيع التلاقيح، التي بلغت فـي بعض الحـالات المرحلة السـريريّة الثالثة، وبلغت نتائجها نسـبة التسعين بالمائة في تحقيق المناعة ضدّ الفيروس. ولكنّ التلاقيح ليست دواءً! وإذا كان الخوف قد سيطر على الناس لعدد الوفيات الذي بلغ إلى حدّ تحرير هذا المقال 1.261.075 من جملة المصابين البالغ عددهم 50.676.072 بحسب منظّمة الصحّة العالمية[7] فإنّ الخبراء يشيرون اليوم إلى الحاجة إلى ما يفوق الخمسـة مليارات جرعة لتحقيق المناعة، دون تيقّن علميّ من ذاك التحقيق؛ لما قد يفاجئنـا الفيروس به من تحـوّلات بنيويّة تلغي جـدوى التلاقيح كما أسلفنا، أو لما قد يظهر من جشع الشركات الكبرى التي تتاجر بأرواح الناس، بل قد يكون أمر اللقاحات لعبة سياسيّة كما تثير هبة ونيس في مقالها بتاريخ 13 أكتوبر 2020[8].

ما دلالة هذا كلّه؟ وإلى أين يسير العالم؟ وهل في العالم الإسلامي شيء ما يخصّه من حيث التقبّل والسير مع العالم نحو أفق مَا؟

شيء من الدلالة على تغيّر المفاهيم

طرح فيروس الكورونا ـ في علاقته بما اعتاد الناس من الأوبئة وعرفوا من الطواعين بحسـب مدوّنات الأخبار، بعضَ المفاهيم التي تدلّ من ناحية على تقبّل الفيروس بوصفه ظاهرة وبائية متفشية، وفاتكة، ثمّ بصفته مهدّداً ممكناً لنسق الحياة وانتظام الأمم أيّا كان محلّها وأيّا كانت حضارتها. فهو جسم حيّ سـريع الفناء ما لم يجد حاملاً يتوسّـل به إلـى الأحياء من البشـر، عابر للقارّات، سـريع العدوى، متمكّن حين يجـد عافية هشّـة، أو ذاك ما يقوله الأطباء إلى حين يكتشفون «حقائق» أخرى تزيد التوصيف دقّة. أوّل المفاهيم التي أجمعت عليها الإنسانيّة وتردّدت في الخطب السياسيّة الرسميّة والتعليمات

7 ـ انظر https://covid19.who.int/ بتاريخ 10 نوفمبر 2020.

8 ـ https://madamasr.com/ar/2020/10/13/opinion/u/%d8%ad%d8%af%d9%8a%d8%ab-%d8%a7%d9%84%d9%84%d9%82%d8%a7%d8%ad%d8%a7%d8%aa-%d8%aa%d8%b7%d9%88%d8%b1-%d8%b9%d9%84%d8%a7%d8%ac%d9%8a-%d8%a3%d9%85-%d9%84%d8%b9%d8%a8%d8%a9-%d8%b3%d9%8a%d8%a7%d8%b3%d9%8a/

الطبيّة والملاحظة العلميّة هو مفهوم الفيروس «**الحاضر الخفي**»، لا يدرَك إلّا بعوارضه، التي هي آثار مرضيّة حدّدتها المخابر في عدد قليل تدلّ على اعتلال المصاب؛ ولكنّها أيضاً متفاوتة الحدّة، متنوّعة العناصر، مختلفة الظهور؛ إذ من الناس من لا تظهر عليه علاماتٌ تُذْكر رغم إصابته. وزاد ذلك من غرابة الفيروس وإلغازه. ولكنّ المعلوم أيضاً أنّ الفيروس الجديد هو إلى حدّ ما من طبيعة الفيروسات التي تمّ اكتشافها في أواخر القرن التاسع عشر، وتبع الاكتشاف نشأة علوم غيّرت صفة النظر إلى جسم الإنسان وتقدير تكوينه الصحّي. ولئن ربط مثل الفيلسوف فتحي المسكيني ـ في مقال طريف عن هويّة الكورونا ـ اكتشاف «الفيروسات» بمقالة نتشيه عن «موت الإلٰه»، واستقرأ هوية الكورونا المشكلة قراءة فلسفيّة نفذت إلى الإقرار بتغيّر النظرة إلى الذات البشريّة؛ فإنّ ما دار في بعض الآفاق الإسلاميّة قد ذهب عكس هذه الرؤية، وتردّد على ألسنة البعض أنّ الكورونا جند من جند اللّٰه، يختبر به ذوي العزم من المؤمنين، واقتضى ذلك من المسلمين مزيداً من التقوى، والإقبال على اللّٰه. وترجمت الحالة في مثل تونس بخروج فريق من المتديّنين المتشدّدين ليلاً؛ إعلاناً عن مقاومة الفيروس رغم إقرار «الحجر الصحّي»، كما لو كان الخروج ليلاً هو مجاهدة من جنس الفيروس الخفي. ولا شكّ في أنّ مثل هذا السلوك لا يتجاوز تبريراً مبسّطاً لحركة سياسيّة تبحث عن شرعيّة بالدين. وسار اعتقاد ضمني بين عموم الناس في مثل دولة من أوفر الدول الإسلاميّة عدداً ـ إندونسيا ـ أنّ الكورونا تعالج بالدعاء والتضرّع إلى اللّٰه، فضلاً عن البروتوكول الصحّي الذي التزم به الجميع التزاماً مدهشاً. ولكنّ الأهمّ من هذا الشأن في نظرنا أن هويّة الكورونا الملغزة وتخفّي الفيروس تعلن حقيقة مقبولة، وهي عدّ ما لا يُرى أمراً موجوداً، وإن أنكر البعض وجود الفيروس أصلاً، وعدّه حيلة سياسيّة للسيطرة على المجتمعات والأمم. ثمّ إنّ

طرح فيروس الكورونا ـ في علاقته بما اعتاد الناس من الأوبئة وعرفوا من الطواعين بحسب مدوّنات الأخبار، بعضَ المفاهيم التي تدلّ من ناحية على تقبّل الفيروس بوصفه ظاهرة وبائية متفشية، وفاتكة، ثمّ بصفته مهدّداً ممكناً لنسق الحياة.

الفيروس «القاطن» في كلّ محلّ، وتحوّل الأشياء محامل ممكنة تنقل العدوى، وكون الفيروس جزءًا من جسم الإنسان وتكوين خلاياه ـ كما يقول علم الفيروسات ـ مسألةٌ خطيرة للغاية. ويُسْأَلُ إذن: هل يكون بموجبها الإنسان على غير صورة الإلٰه، وهل تتهافت السرديّة التوحيديّة المفصّلة في قصّة الخلق والتكوين؟ ربّما. ولكنّ المؤمن المسلم خاصّة واللاهوتي المسيحي واليهودي أيضاً لا ينفكّ كلّ منهم يقرّر تلك الصورة الإلٰهيّة للإنسان في سرديّة أخلاقيّة؛ التزاماً منهم جميعاً بأنّ الدين سابق للإنسانيّة والأخلاق معاً، والحال أنّ العكس هو الراجح؛ وإنّما الدين رؤية ثقافيّة يستصلح بها الإنسان مقوّمات الفهم والتفسير لديه. ذاك ممّا يطرحه مفهوم الفيروس «الخفيّ الحاضر».

والمفهوم الثاني الذي تواتر بين الناس في كثير من الخطابات الرسميّة والإعلاميّة والأخلاقيّة أنّ الإنسانيّة بصدد مواجهة «**حرب**»، واقتضى المفهوم حتماً أن يكون فيروس الكورونا «عدوّاً». وطريف في الآفاق الإسلاميّة أن يوصّف الفيروس بالعدوانيّة من ناحية، وأن يعدّ في الوقت نفسه من «جند الله». وكأنّما الخطاب الإسلامي ينطلق من افتراض أن يكون الفيروس «فتنة» و«ابتلاء». وتوالى التقدير فَعُدّت الكورونا حرباً فيروسيّة أو بيولوجيّة، وتطوّر الأمر فرجّح بعضهم أنّها مؤامرة سياسيّة ترمي إلى سيطرة بعض الدول العظمى ذات النفوذ على الاقتصاد الدولي وإحكام قبضتها عليه. وفي هذا التفسير الأصلي وتَابِعِهِ مبالغةٌ وَحَيْدٌ عن المنطلقات العلميّة وتاريخ الأوبئة، التي تحسب الأوبئة ظاهرة ناشئة من صلب المحاضن الطبيعيّة التي يعيش فيها الناس. ويبقى مثل رأي ابن خلدون في هذا السياق الدقيق أقرب إلى العقلانيّة والمقبوليّة، رغم انتسابه إلى العصر الوسيط من تاريخ المسلمين؛ يقول ابن خلدون (ت: 808هـ/1406م) في وقوع الوباء «وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران؛ لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملابسه دائما فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة، وهذه هي الطواعين وأعراضها مخصوصة بالرئة. وإن كان الفساد دون القويّ والكثير فيكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحميّات في الأمزجة وتمرض الأبدان

وتهلك»[9]. ولئن ربط ابن خلدون ظهور الأوبئة والطواعين كما شــرح بأواخر الدول؛ فإنّه لم يقرّر أنّها من الفتن، ولا من علامات قيام الساعة كما يدّعي البعض في الأفق الإســلامي. يعي الناس اليــوم أن الكورونا حرب مع عدوّ شــرس غير مرئي، ولكنّها حرب من نــوع غير الأنواع العاديّــة التي ألفتْها الإنسانيّة، وليس العدوّ بذاك المخالف في الديانة والجنس، ولا ممّن خرج عن الجماعة، وإنّما هو عدوّ الحياة وبقاء الجنس البشريّ. والأصل الدقيق في هذا المنطلق أنّ الكورونا حرب على مناعة الجســم البشري، واستمرار النسل. وأدوات الحرب من ثمّ ليست الآليات المعروفة، ولا هي ممّا يتسلّح به المقاوم ضمن فيالق مــن الجيوش التي تُعدّ للغرض، وتقسم الأماكن بموجبها إلى دار حرب ودار سلم، دار قتال ودار نجاة وبقاء. ولعلّه لهذا الأمــر بالــذات ســمّي فيلــق الأطبــاء والعلماء الباحثين عن علاج بـ«الجيش الأبيض». ليست أمّة بعينها هي المعنيّة بهذه الحرب، وليس العدو بخارج عن كوكب الإنســانيّة؛ وإنّما الحرب من أجل البقاء حرب للإنســانيّة برمّتها. والتفاوت الوحيد بين الأُمم في معاناتها ومناعتها يكمن في استعدادها العلمي بتوفير اللقاحات والعلاج معاً، اللقاحــات للتوقّي، والعــلاج للمصابيــن، وما أكثرهم، بل قــد تزيد موجة الكورونا الثالثة المنتظرة الطين بلّة، والوضع الصحّي تعقّداً. ويبرز ـ نتيجة للإحساس بالمجهول، والخوف من اللغز القادم ـ ارتباك الدولة في مخاطبة المواطنين، وتقصير في توفير الرعاية، وإعلان عن العجز أمام سيل جارف لا يعرف من أمر توقّفه شــيء. وأمام هذه الحيرة العامة توحّدت الإنسانيّة برمّتها في الهلع، وخسرت الدولة وثاقتها المعتادة بما تفي به من الوعود، وأعلن علم الطبّ أو الصحّة أنّه ما زال في طور التفهّم لما يحدث من أمر

يعي الناس اليوم أن الكورونا حرب مع عدوّ شرس غير مرئي، ولكنّها حرب من نوع غير الأنواع العاديّة التي ألفتْها الإنسانيّة، وليس العدوّ بذاك المخالف في الديانة والجنس، ولا ممّن خرج عن الجماعة، وإنّما هو عدوّ الحياة وبقاء الجنس البشريّ.

9 ـ راجع ابن خلدون، المقدّمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار الشعب، القاهرة (د.ت.)، ص271 - 72.

الكورونا. أصبحت الحرب يوميّة وذاتيّة ومحلّية شـــاملة، واقتطع الفرد بها من الجماعة والأمّة والقبيلة وسائر البشر على أساس الإصابة أو المناعة. وحتّى المعافى تراه حاملاً للفيروس بالقوّة، معرّضاً في أيّ وقت إلى العدوى، فتنقلب حاله ووضعه رأســاً على عقب بين اليوم والليلة. ولو حدث أن مات لدفن على غير المعهود، فرداً «منبوذاً»، كما لو كان بغير أهل، ولا طقوس آمن بها طيلة حياته. ويتلافى المســلمون شــيئاً ممّا خســروا بهذه الحرب الشرسة: يعدّون الهالك «شهيداً»، ويتناسون ـ بشيءٍ من الصلف الأخلاقيّ ـ أنّ ما حملوه من التعاويذ والتمائم والأدعية والإيمان العميق لم يصنهم من شراســة الكورونا، ولا نفع النقاب أو الجلباب أو القفّــاز أو الطهارة التي ظنّوها كافيــة. يذكر أنّ أحدهم رفــض أن يضع اللثام، وأصــرّ على صلاة الجماعة بالمسجد، فنقل الفيروس إلى أهله صغيراً وكبيراً، ووقف بأُمِّ عينه على أنّ القرآن الذي احتمى به من الكارثة لم يدفع عنه الأذى، فاستدرك بأمر القضاء والقدر، وســلّم الروح تســليماً. دلالة الحرب أنّها إعلان عن العجز الكلّي، وحلول الإنسان في موقع آخر من الوجود لا علاقة له بما ألفه فيما ســبق. ومع ذلك تنادت الدول بواجب المقاومة أمام شراسة التنافس بين كبريات الشــركات المصنّعة للأدويّة والتلاقيح، المنكبّة على التحليل والتصنيع والتجربة السريريّة، وكأنّما الإنســان يموت ولا يفرّط في تنمية رأس المــال والكســب المتوحّش. لــذا قالوا بمــا أســموه بـ«البروتوكول الصحّي»، وعليــه مدار المفهــوم الجامع والمهــمّ: مفهــوم «الحجر» أو «العزل» والالتزام مطلقا بـ«التباعد الجســدي» (كــذا)، وهو ما ينمّ عن فردانيّة **غير انقطاعيّة**.

مفهوم «الحجر» هو غير ما جرى من وســيلة «الكارانتيتنــة» احتماءً من المصاب، وغيرُ «الإفراد» القسري الذي عرفته الحضارة العربيّة القديمة قبل الإسلام، كما جاء في معلّقة طرفة بن العبد مثلاً[10]. كما لا يكون «الحجر» شيئاً

10 ـ راجع معلقة طرفة، http://www.khayma.com/almoudaress/moualakat/tarafah.htm البيت:

وما زال تشرابي الخمور ولذّتي وبيعــي وإنفاقي طريفــي ومتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلّها وأفــردت إفــراد البعيــر المعبّد

كأمر «التغريب»، كما جاء في الأحكام الفقهيّة[11]، ولا هو ارتهان النفس في أحد المحابس، كما فعل أبو العلاء المعرّي الموصوف برهين المحبسين. «الحجر» هو أن يعزل المعافى نفسه احتماء من الكورونا وتوقّياً من العدوى، وصوناً لمناعته الجسديّة. وقد قدّم فتحي المسكيني مرّة أخرى ـ في المقالات التي أفردها لتأويل ظاهرة الكورونا ـ فقرات عميقة عن أمر الحجر ودلالة «البقاء ـ في ـ البيت»[12]، ولا مناص لنا من تأكيدها هنا والاعتداد بوجاهتها. بل نروم في هذا المقام أن نلحّ على تغيّر مفهوم الحجر بما يناسب وضعاً جديداً أو كينونة إنسانيّة مختلفة عن سابقتها. الحجر فيما جرى اليوم بين الناس نوعان: أحدهما إجباري إلزامي تقرّره الدول بمناسبة التنقل بين البلدان والسفر وحتّى الزيارات السياحيّة، وهو «حجر صحّي» وقائي، تلزم به قرارات المنظّمات الصحيّة الدوليّة، وهو في كلّ الحالات حجر فرديّ أو شبه فردي حينما يتعلّق الأمر بأُسرة متركّبة من زوجين وأطفال. والصيغة الثانية: حجر واجب ولكنّه طوعي بحسب وضع الوباء وشدّته، وكثرة المصابين، ويتمثّل في البقاء بالبيت مدداً معلومة، وأوقاتاً مضبوطة. تهمّنا هنا الصيغة الثانية؛ لكثافتها واشتراك الناس فيها. والجديد في هذه الصيغة من الحجر اعتزال ذاتي للعالم الخارجي

مع ذلك تنادت الدول بواجب المقاومة أمام شراسة التنافس بين كبريات الشركات المصنّعة للأدويّة والتلاقيح، المنكبّة على التحليل والتصنيع والتجربة السريريّة، وكأنّما الإنسان يموت ولا يفرّط في تنمية رأس المال والكسب المتوحّش.

11 ـ راجع مثلًا أبا الوليد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1988، الجزء الثاني، ص436، ففيه ذكر لحديث عبادة بن الصامت في أمر التغريب. والتغريب حكم يتعلّق بالزنى والحرابة والتعزير أيضاً. وباب التعزير باب واسع يعود إلى اجتهاد القاضي في المسائل المعروضة أمامه. راجع فصل تغريب في الموسوعة الفقهيّة، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، الكويت، ط2. الكويت، 1988، ج13، ص46 - 48.

12 ـ راجع، فتحي المسكيني، مقال عودة الإنسانيّة إلى البيت، نشره على صفحته الإلكترونيّة.
https://lartisto.tn/2020/04/02/%D9%81%D8%AA%D8%AD%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%83%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D8%B9%D9%88%D8%AF%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A/

وعودة إلى الــذات من أجل الحيــاة والحاجة إلى اســتمرارها. ولا علاقة لهذا بمقصد الشــريعة القائل بحفظ النفس. ومع هذا الانعزال عن العالم الخارجي، يجابه المنعزل أمراً خطيراً هو كونه اجتماعيّاً بالطبع، يعنون مدنيّاً بالطبع. وهذه المدنيّة مهمّة وتكوينيّة في الذات البشريّة بحيث لا ينقطع الإنسان في البيت عن بني جنسه، وإنّما يحيا حياة «أخرى» بـ«نقل العالم إلى البيت»، على حدّ عبارة المسكيني. لذلك قلنا سلفاً: «الحجر» انفراد **دونما انقطاع** عن الناس. وتحويل الخاصّ من فضاء البيت إلى عامّ، دون كشــف المســتور والحميمي وَضْعٌ جديد يشمل العمل خارج الإطار المعتاد، والإبداع، وسائر أوضاع الإنسانيّة التي لا تكون أصــلاً **بلا غيريّة**. وهنا مكمــن الأهميّة حين نعلــم أنّ الغيريّة ملابســة للذات المفردة، ومخالطة لمزاجها وفكرها، ومتماهية مع جوهرها. ويذكّرنا هذا الوضع الدقيق بما يجري في حضارات قديمة ما زالت إلى اليوم حيّة ومهمّة، مثل «يوم الصمت» في جزيرة بالي بإندونيسيا الموسوم عندهم بـ«نيابي» (Nyepi)، ويكون على رأس السنة الهندوسيّة. صحيح أنّ الحجر الصحّي غير «نيابي»، ولكنّ أمر الفردانيّة والعودة إلى الذات، وتدبّر الأفعال التي قام بها الفرد في مواجهة الواجب الأخلاقي إنّما هي من الجوانب التي لا يعدمها الفرد المنعزل جسديّاً عن الناس. «نيابي» مســاحة للتأمل فيما عمــل الفرد وما ينــوي ضمن تقاليده الهندوســيّة، و«الحجر» الصحّي شــيءٌ من ذلك بعد التحيّز في البيت والبقــاء **غيريّاً** مطلقاً. الجديد في صيغة الحجر الصحّي أنّ كينونة الانفراد أمر ممكن، والإنسانيّة برمّتها قادرة علــى التواصل تواصلاً حيّاً بلا لقاء جســديّ، ولا تلامس محســوس، وتمثّل الوســائط الافتراضيّة آلية مدهشــة في تحقيق التعايش، والوجــود معاً بلا عدوى مرضيّة. ونحن في هذا الوضع الجديد أمام انتظام مجتمعي مختلف عن الأنســاق التقليديّة، يشمل ذلك التعليم والتجارة والإبداع الفنّي، والعروض التي كانت تعتمد الحضور والمباشرة. كما يهمّ تنوّع اللغات والألسنة، ورحلة الأفكار والثقافات، وجلّ ما تتقوّم به أحوال العمران البشــري. يفقد المكان ســلطته المعتــادة، وكذا أمر الزمان، واللسان، وتتشكّل أخلاقيّة أخرى ستجابه حتماً ما ظُنّ ثابتاً من أمر الهويّة والدين خاصّة. ومهمّ أن نلفت الانتباه في هذا الســياق إلى خواء المدن وشوارعها الفاتنة بالحياة أيّام الموجة الأولى من الكورونا؛ خوت شــوارع باريس، ونيويورك،

وواشنطن وبرشلونة، مثلما خوت شوارع جاكارتا المكتظّة، وأغلقت «ووهان» الصينيّة برمّتها، وفقدت المطـارات العظيمة في العالـم أبّهتها وجاذبيّتهـا، وأضحت أهمّ المنتجعات في العالم بلا روح ولا جمال؛ لانسحاب الإنسان منها، وتحاميها دفاعاً عن مناعته. أمّا المسـلمون فقـد رأوا البيت المعمور خاوياً بلا حـجّ ولا عمرة ولا شعائر ظنّوها طيلة حياتهم ثابتة لا ينقطعون عنها، ولا يخفت وهجها في نفوسهم. نسوا أن الحجّ قد توقّف فترة طيلة عشر سنوات أو ما يزيد عليها عندما «استولى» القرامطـة على الحجر الأسـود، وأصبحت الطريـق إلى الحجّ غيـر آمنة. ووقف السياسـي بحزم المصلحة الراجحة فمنع الحج والزيارة، كما وقف بالحزم نفسه ليمنع الصلاة في المساجد، وأغلقت «بيوت الله»؛ لأنّ الفيـروس قد خالطهـا وسـكنها، وباتت حيّـزاً من الفضاء لا تنجـو فيه النفـوس، وإن رتّلـت القرآن وتعبّدت لصاحب الجند ممّا أصاب الناس جميعاً.

الجديد في صيغة الحجر الصحّي أنّ كينونة الانفراد أمر ممكن، والإنسانيّة برمّتها قادرة على التواصل تواصلاً حيّاً بلا لقاء جسديّ، ولا تلامس محسوس، وتمثّل الوسائط الافتراضيّة آلية مدهشة في تحقيق التعايش، والوجود معاً بلا عدوى مرضيّة.

ليس للمكان ولا للزمان دلالة في ذاتهما إلا أن يكون ذاك المعنى ممّا ابتكر الإنسـان وصاغه في جنس سـرديّة باهرة ومبهجة. وكذا شـأن كلّ الأمم المحتاجـة دائماً إلى سـرديّة خلق وتكوين لِتَقَبُّـلِ لُغْزِ الوجود. ومن أهـمّ ما أحدثه فيروس الكورونا ذاك الوعـي بـ «المكان الخاوي»، مكان دون إنسان، ما عسـى تكون دلالته؟ والبديل في نظرنا أنّ تدحرج المكان والزمان عن المعتاد في أذهان الناس سيفتح باباً آخر مركزه الإنسـان أيضاً، ستتّسـع أعماق **الغيريّة** لتشـمل جذور التنـوّع ووفرة التعدّد، فلا تبقى الحقيقة غير نابت **كثير** يصنعه الناس على مرّ التجارب **مع الأغيار لا بمفردهم**. وإذا كان زوال جدار برلين قد بشّر بعهد أوروبي جديد، فجدران المحلّي المتدحرجة في كلّ مكان سـتصنع أفقاً آخر هو بين الرحابة غير المحدودة من ناحية، وإخصاب الخصوصيّات الفرديّة والمكانيّة لتُبعَثَ من صلبها كونيّةٌ تزيد من استنبات الغيريّة وتوطينها في كلّ نفس قابعة في ذاتها، لا تجرؤ على مغادرتها. نحن إذن أمام منعطف حضاري جديد.

أيّ بديل حضاريّ ممكن؟[13]

لا شكّ في أن السؤال عمّا **بعد** الكورونا سؤالٌ وجيه وعاجل؛ ولكنّ المشكلة في أمـر **البعديّة**! هل نحن واثقون فعلاً بـزوال الفيروس والتوقّـي منه نهائيّاً بالتلاقيح المكتشفة، والتخلّص منه بالعلاج المتاح؟ لا يقطع العلم إلى حدّ الآن بهذه الحقيقة؛ بل على العكس من ذلك، يتواتر اليوم بين العلماء والسياسيين ـ على حدّ سواء ـ أنّنا مقبلون على وضع التعايش مع الفيروس، والتعامل معه في ثنايا شؤوننا اليوميّة، ولذا نحن مقبلون على تجربة وجوديّة وصحيّة أخرى وجب فيها عزل العدوى، و«تدجين» الفيروس، بحيـث تبقى المناعة جارية، ومغالبة الموت ممكنة. وليس الحلّ فيما يتراءى مسألةً طبيّة بلا توابع اجتماعيّة وقيميّة شـاملة؛ لأنّ البقاء مع الفيروس يقتضي تشـكّل نظام حياة جديد، وتوطّناً في العالم مختلفاً، ويسـتتبع ذلك كلّه تنويع أسـاليب الكسـب والمعاش، وسـائر مقوّمات المدنيّة ليكون الإنسان قادراً على الاستمرار مع غيره لا منقطعاً عنه.

ظهرت فـي الأدبيّات المتاحة بعض الأطروحات، دشّـنها الباحث من أصل سـلوفيني، س. جيجيك في كتاب أفرده لفيروس كورونا بعد انتشـاره عالميّاً، وأشرنا إليه سـلفاً، وقرّر فيه منطلقاً مهمّاً قائلاً: «يجب أن نقاوم ذاك الميل إلى دراسة الجائحة الجارية بصفتها شيئاً ذا دلالة أعمق»[14]، ويوضّح بشيءٍ من التفصيل مسترسـلاً: «فجائحة فيـروس الكورونا في حدّ ذاتها ليسـت مجرّد ظاهرة بيولوجيّة تصيب البشر؛ فلكي نفهم انتشارها، علينا أن نقدّر اختيارات الناس الثقافيّة... والاقتصاد والتجارة المعولمة، والشبكة الكثيفة التي نسجتها العلاقـات الدوليّة، وآليّات الخـوف والهلع الإيديولوجيّـة»[15]. ولئن دافع عن

13 ـ See further, Richard Horton, “After Covid-19 – is an “alternate society” possible? In. https://www.thelancet.com/journals/lancet/article/PIIS0140-6736 (20) 31241-1/fulltext

14 ـ “we should resist the temptation to treat the ongoing epidemic as something that has a deeper meaning”. See: https://www.thelancet.com/journals/lancet/article/PIIS0140-6736 (20) 31241-1/fulltext

15 ـ “The coronavirus epidemic itself is clearly not just a biological phenomenon which affects humans: to understand its spread, one has to consider human cultural choices…economy and global trade, the thick network of international relations, ideological mechanisms of fear and panic.” in. Ibid.

سـقوط اللبراليّة الجديدة المتوّحشة بسـبب هذه الجائحة، والانتصار لقيام «شـيوعيّة جديدة» في صيغـة من التضامن الإنسـاني المدافـع عن الحقوق الأساسيّة لكافة البشر على وجه الأرض، وتحقيق شيء من العدالة التي داستها الرأسماليّة المتعاظمة[16]؛ فإنّه لم يُقْنِعْ غيره من الفلاسفة الذين ردّوا مقالته، من بينهم آلان باديو (Alain Badiou) وبايونج ـ شول هان (Bayung-Chul Han)[17]. ومع ذلك لم تفقد دعوته أثرها في غير هؤلاء ممّن رأوا في مقالته شـيئاً من الوجاهة، وذهبوا إلى أنّ الجائحة ـ التي هزّت العالم بأسـره وما زالت ـ قادرةٌ على مراجعة «الهمجيّة المتوحّشـة التي تحجّبت بلبوس إنسانيّ»، على حدّ تعبير جيجك نفسه[18].

لا شكّ في أن السؤال عمّا بعد الكورونا سؤالٌ وجيه وعاجل؛ ولكنّ المشكلة في أمر البعديّة! هل نحن واثقون فعلاً بزوال الفيروس والتوقّي منه نهائيّاً بالتلاقيح المكتشفة، والتخلّص منه بالعلاج المتاح؟ لا يقطع العلم إلى حدّ الآن بهذه الحقيقة.

يذهـب محمد الشـريف الفرجاني ـ أسـتاذ العلوم السياسـيّة بجامعة ليون الثانية ـ المذهب نفسـه تقريباً، ويقرر ـ في أكثر مـن مقال ـ أنّ ما أصاب الناس من هذه الجائحة لم يكن إلّا من فسـاد الليبراليّة الجديدة المتوحّشـة، واستئثار القلّة القليلة من الأعيان بثروات العالم، وانتشار الفقر والتفاوت والأمراض بين أغلبيّة المجتمعات الإنسانيّة. وتُعدّ الجائحة ـ في نشأتها بـ «ووهان» الصينيّـة ـ أمراً ناجمـاً عن إخلالات الاسـتبداد السياسـي، والتصنيع خارج الإطـارات الأخلاقيّة والتسويق الفوضوي المشطّ، وتنافس الشركات الضخمة على الربح الفاحش وإهمال الخدمات الاجتماعيّة والحقوقيّة التي كان بالإمكان أن تيسّـر الحياة على ذوي الحاجات الأساسـيّة. والبديل في نظر هذا الشقّ من الفلاسفة هو **التآزر الإنساني**، بما يضمن تلك الحقوق المفقودة، ويلبّي انتظارات الشعوب

16 ـ "We are not talking here about the old-style Communism, of course, just about some kind of global organization that can control and regulate the economy, as well as limit the sovereignty of nation-states when needed." Žižek 2020, 44-45,

17 ـ جيجك، المرجع المذكور، 97.

18 ـ جيجك، 83.

المحرومة من العيش الكريم. البديل إعادة حوكمة للمال والناس بإنسانيّة حقيقيّة وفعّالة على أساس من علاقة «سويّة بين البشر والطبيعة أو بين الإنسان والأرض»[19]. وهو ما يمكن أن يفهم من دعوة الفيلسوف الفرنسي إدغار موران إلى مجتمع إنسانيّ «إيكولوجي»[20] من ناحية، وما عبّر عنه مثل جيجيك بـ «الشيوعيّة الجديدة» من ناحية أخرى. تتّفق هذه الدعوات في ضرورة الخروج من حدود الدولة القوميّة، والعولمة الفاحشة بأثرٍ من الليبراليّة الجديدة المتوحّشة إلى مجتمع إنسانيّ متضامن، تتألّفه أخلاقيّة الحقوق والعدالة، ولا تعوقه الهويّات المنتصبة هنا وهناك باسم الدين أو العرق أو التاريخ التسلّطي الاستبدادي وما شابه؛ لأنّ الجائحة العامّة تمثّل في أصلها الأوّل خطراً إنسانيّاً شاملاً لا يستثني أحداً أيّاً كان انتسابه أو انتماؤه. يدافع الفرجاني عن مجتمع بديل يُسَاسُ بديمقراطيّة اجتماعيّة لا أثر فيها للخياريْن الجاريْن حاليّاً، وهما الليبراليّة المتوحّشة التي أفقدت الدولة الديمقراطيّة دورها الاجتماعي من خلال عدّ القطاع العمومي ذي أولويّة مطلقة من ناحية؛ والدكتاتوريّة المهيمنة بالليبراليّة الاقتصاديّة التي زادت الناس بؤساً والأفراد تجرّداً من حقوقهم الأساسيّة، كما هو الحال بالصّين، من ناحية أخرى. البديل في نظر الفرجاني هو أن يسعى العالم إلى عودة الدولة الراعية لحقوق المواطنين، وأن يعاد ترتيب العقد «الاجتماعي» والتصالح بين الإنسان والطبيعة، عسى أن تلتئم جروح الناس المنقطعين عن الكون وتنقطع شكوى الطبيعة من استغلال الإنسان لها».[21] ويعدّ هذا الرأي ردّاً على ما ذهب إليه إيهاب عمر[22] في مقاله «ما بعد كورونا.. ربيع القوميات، خريف الاتحاد الأوروبي، سقوط العولمة الصينية، أفول النيوليبرالية»، وإن كانت ملاحظاته

19 ـ Mohamed –Cherif Ferjani, L’avant et l’après Corona virus: Des enseignements pour l’avenir, in. file:///C:/Users/Asus/Desktop Covid%2019/L%E2%80%99avant%20et%20l%E2%80%99apr%C3%A8s%20Corona%20Virus%20Des%20enseignements%20pour%20l%E2%80%99avenir%20-%20OSAE.html (4 Avril 2020).

20 ـ Edgar Morin, Changeons de voie: Les leçons du coronavirus, Denoël, Paris, 2020.

21 ـ Ferjani, Op. Cit, p. 14.

22 ـ https://marsad.ecsstudies.com/24139/ (March 24, 2020).

في كثير من المواضع راجحة، وعلى الأغلب يبقى توصيف إيهاب عمر غير بعيد عن حال الإقرار لا التحليل كما أشار الفرجاني.

قد يكون رأي الفرجاني متأثّراً خاصّة بالمنطقة الأوروبيّة؛ حيث يبدو للدولة الديمقراطيّة دور اجتماعي راسخ تاريخيّاً، وزادته الحربان العالميّتان والأزمات الاقتصاديّة وجاهة تشبّثت بها بعض الأحزاب اليساريّة خاصّة، وأحزاب الوسط في الدول الأوروبيّة الكبرى. ولئن كانت جائحة الكورونا ظاهرة عالميّة شاملة؛ فقد يكون في نظرنا أمر الدول العربيّة والإسلاميّة مختلفاً اختلافاً دقيقاً؛ لفقدان حلقة نقديّة مهمّة، تتمثّل في مراجعة المسألة الدينيّة مراجعة جذريّة، وتقدير الاستثناء الثقافي تقديراً يعيد النظر في قضيّة الهويّة برمّتها. وقد كشف الربيع العربيّ والثورات الناجمة بصيغها المختلفة في الكثير من المجتمعات معضلةَ أنْ يتدرّج العالم العربي والإسلامي إلى مجتمع الحقوق الإنسانيّة، المضمونة بديمقراطيّة تشاركيّة هي في جوهرها **اجتماعيّة** كما يريد الفرجاني. وقد كان الفرجاني واعياً تماماً بالمعضلة العربيّة والإسلاميّة المتمثّلة في تقبّل الكورونا بذهنيّة ما زالت تنهل من سرديّة الهويّة الإسلاميّة خاصّة.

لئن كانت جائحة الكورونا ظاهرة عالميّة شاملة؛ فقد يكون في نظرنا أمر الدول العربيّة والإسلاميّة مختلفاً اختلافاً دقيقاً؛ لفقدان حلقة نقديّة مهمّة، تتمثّل في مراجعة المسألة الدينيّة مراجعة جذريّة، وتقدير الاستثناء الثقافي تقديراً يعيد النظر في قضيّة الهويّة برمّتها.

لعلّه من المفيد أن نعرض للنقاش الملاحظات التاليّة التي قد توجّه إلى استقراء ما يمكن أن يكون بديلاً لمجتمع الأزمة المركّبة الراهنة؛ إذ هي أزمة ثلاثيّة: أزمة صحّية، وأزمة اقتصاديّة، وأزمة نفسيّة[23] أصابت عمق الفرد في صيغتيه الفرديّة والجماعيّة. هي أزمة صحّيّة نجمت من توحّش صناعي، اقتضاه جشع مالي ليبرالي، أفسد إدارة الحقوق وحوكمة الحياة الإنسانيّة كما تعهّدت بها الأنظمة الديمقراطيّة التشاركيّة. ورافق هذه الأزمة الصحّيّة **حروب** كثيرة في أكثر من بلد عربيّ وإسلاميّ، تدّعي كلّ حرب أنّها ثورة من أجل تحسين

23 - https://www.thelancet.com/journals/lancet/article/PIIS0140-6736 (20) 31241-1/fulltext

الحيــاة وإدارتها. ولئن تغيّــرت الأنظمة وتدرّجت المجتمعات نحو شــيء من الاســتقرار والانتقــال الديمقراطي فــي بعض البلــدان؛ فإنّ حالــة الاختناق الاقتصادي والحريّات الأساسيّة ما زالت شديدة، وظنّت الأنظمة على الأقلّ أنّ النجاة في الحلّ الليبرالي كما تحدّده المؤسّسات الماليّة المقرضة في العالم، وخاصّة منها البنك الدولي. وتعظم الأزمة في جلّ البلدان العربيّة والإسلاميّة بتنامي التراجع في القطاع العمومي، وفقدان التعليم والتربية وجاهتهما، وكذا الشأن في مجالي الصحّة والدواء، وانسداد آفاق الشغل، وتردّي الاستثمارات بما فيها النشاط الفلاحي الحيويّ، وإفلاس قطاع الخدمات بما فيها السياحة، وظهور مقابل ذلك العنف في صيغه الكثيرة، وتهديد الإرهاب استقرار الناس وأمنهم. كما ظهر بين الشبان يأس لا مثيل له؛ فنجم عن ذلك هجرة البلاد خفيةً أو علناً، كما ظهرت موجات عديدة من هجرة الكفاءات بالبلدان العربيّة والإســلاميّة إلى الدول الأوروبيّة والأمريكتين خاصّة، وتولّد عن هذا المشهد المختلّ وضْعٌ مرتبك هو دليلنا في استقراء البديل الممكن.

تخــصّ الملاحظة الأولــى ما تعلّمه العالم بأســره من الوبــاء، وهو أنّ الإنسانيّة برمّتها هشّــة أمام المخاطر الممكنة، وخاصّة منها مخاطر الصحّة التي تهدّد الحياة أصلاً. ولا يخفي هذا محدوديّة المعرفة الطبيّة مهما ادّعت الدول المتقدّمة قصب السبق فيها. والأمر يبقى دائماً نسبيّاً. التلاقيح هي إذن جزء من البحث عن وقاية، ولكنّ لا شيء ينبئ باليقين. لذلك يبدو أنّ العالم الليبرالي سيســير في اتجاهين متكاملين: أوّلهما مزيد الاستثمار في البحوث العلميّة في مجالي الأمــراض والأوبئة من ناحية، والأدويّــة من ناحية أخرى. ويُظَــنُّ أنّ الدول التي أدركت المخاطر جيّداً ســتتولّى بدورها الاســتثمار في هذين المجالين؛ حتّى لا يصبح البحث العلمي جزءًا كبيراً من أعمال الشركات الخاصّة التي تتحكّم غداً في سياسة الصحّة، وسياسة الدول الاجتماعيّة. ويبدو شيء من الأمل في أن تتعاون الدول على ذاك الاســتثمار استناداً على مبادرة الصين إلى مساعدة إيطاليا وغيرها عند معاناة الوباء وتكاثر الوفيات.

أمّا الاتّجاه الثاني فيخصّ معالجة الأسباب التي أدّت إلى نشأة الوباء. وهو فيما فصّلت التقارير بدءًا بسوق «ووهان» إلى أن تحوّل الفيروس إلى جائحة

عالميّة، مسألة صناعيّة في مجال الغذاء عامّة. صحيح أنّ الشركات العظمى هي اليوم منكبّة على تدارك الوضع بترشيد التصنيع والتوقّي من مخاطر كارثة أخرى، ولكنّ رقابة الدولة، وإحكام الحوكمة بترتيب ما بين العمومي والخاصّ أمر لا مجال للتفريط فيه. من هنا يتّجه العالم بأسره إلى **ترجيح كفّة الدولة الديمقراطيّة الاجتماعيّة**؛ لأنّه الممكن الوحيد القابل للاستمرار بعد الكورونا. وهنا بالذات نوافق تماماً ما سبق ذكره من مقال الشريف الفرجاني، ولا نظنّ أنّ أوروبا ستشهد خريفاً، كما لا نعتقد أنّ الليبراليّة في صيغتيها الصينيّة والأمريكيّة ستشهد استمراراً على حالتها الراهنة.

في خضمّ هذا المشهد العالمي غير المشرق ولا المشرّف ازداد الاقتناع بأمرين: أوّلهما: ما يوحّد الإنسانيّة، والثاني موضع الطبيعة من الحياة. فلم يعد يُظنّ الآن أنّ الاهتمام بالبيئة والمحيط شيء من ترف الحضارة، بقدر ما يتعلّق بمستقبل الحياة على هذا الكوكب الذي نسكنه جميعاً.

وفي خضمّ هذا المشهد العالمي غير المشرق ولا المشرّف ازداد الاقتناع بأمرين: أوّلهما: ما **يوحّد الإنسانيّة**، والثاني موضع **الطبيعة** من الحياة. فلم يعد يُظنّ الآن أنّ الاهتمام بالبيئة والمحيط شيء من ترف الحضارة، بقدر ما يتعلّق بمستقبل الحياة على هذا الكوكب الذي نسكنه جميعاً. وإذا ظهرت دولة متعنّتة «خارجة عن القانون» يحملها تسلّطها وثراؤها على إحداث المخاطر للإنسانيّة جمعاء ـ كما هو الشأن في الموقف من تغيّر المناخ والانحباس الحراري ـ وجب التصدّي لمثل هذا السلوك بالقوانين الزجريّة النافذة. وقد نبّهت الأمم المتحدّدة في شأن الكورونا إلى أنّ الفيروس «لم يضع حدّاً للتغيّرات المناخيّة التي ما زالت تمثل تهديدات أعظم للصحّة والعمل والأمن»[24]. وهذا الوصل بين الفيروس والتغيّر المناخي نحو الارتفاع ليس بالأمر المجانيّ[25]. كأنّما العالم يسير إلى عدّ الطبيعة مكوّناً حيويّاً لا تستقيم حياة البشر دون هذا العقد مع الطبيعة،

24 ـ https://www.un.org/fr/climatechange (18 Nov. 2020).

25 ـ Cf Adam Frank, Coronavirus and Climate Change: The pandemic is a fire drill for our planet's future. in. https://www.nbcnews.com/think/opinion/coronavirus-climate-change-pandemic-fire-drill-our-planet-s-future-ncna1169991.

كما أسلف الذكر على لسان الفلاسفة منذ التسعينيّات من القرن الماضي.

اقتناعنا بعد فيروس الكورونا (أو ضرورة مساكنته): أنّ الإنسانيّة اكتسبت وعياً جديداً ووضعاً جديداً: الوعي بعدم التفاوت في مواجهة الوباء، فكلّ الأجساد رهينة الموت، وقد عجز الطبّ أو قد تعجز التلاقيح المنتظرة عن تأمين السلامة، من ناحية. وأمّا الوضع الجديد ـ من ناحية أخرى ـ فإمكان الحياة في صور الحجر دون انقطاع عن الإنسانيّة، كأنّما يمكن أن نسوس الحياة ـ بما فيها العمل والإنتاج والتفكير ـ خارج دائرة الاتصال المعهود. وقد أشرنا سابقاً إلى مسألة «المكان» و«الزمان» بفعل الانعزال دون الانقطاع. قد يسير العالم برمّته إلى «الحياة ـ عن ـ بُعد»، وهي صيغة ممكنة. وعلينا أن نفكّر فلسفيّاً فيما يعني ذلك، وما ينتج من صلب الذات البشريّة من تصوّر جديد للإنسان. يقول فتحي المسكيني: ««**إنّ الحياة تجعل توحّدنا بمثابة العلاقة الأكثر ربطاً بالمشترك الّذي يوحّدنا**»، نعني الشّكل الأكثر حدّة بالانتماء إلى عالم الأحياء. صحيح أنّ العلاقة «التّأمّليّة» بالعالم لم تعد ممكنة، ولكن ليس ذلك بسبب اعتزال العالم بل من أجل حمله معنا إلى المنزل بوصفه هديّة المشترك أو الانتماء إلى إنسانيّة المستقبل»[26].

أمّا الملاحظة الثانية فتتعلّق خاصّة بالعالمين العربي والإسلامي، من خلال حالات بعينها، في انتظار استقراء لكلّ ما يجري في المجتمعات المعنيّة برمّتها. هل يسير العالم العربي إلى بديل الدولة الديمقراطيّة التشاركيّة ترجمةً لما ظهر من مطالب «الربيع العربي»؟ لم يؤثّر فيروس الكورونا في العلاقات العربيّة، لا الإقليميّة ولا العامّة. ولم توقف الجائحة العالميّة أمر الحروب في ليبيا وسوريا واليمن، ومخاطر اندلاعها من جديد في العراق ومصر وحتّى المملكة العربيّة السعوديّة. والأغرب أنّ الرأي العام في مناطق الحروب هو أعلق بشأن الحرب منه بشأن الفيروس. والسؤال هناك: ماذا بعد الحروب؟ لا ننتظر فيما يخصّنا تغيّراً جذريّاً نحو إدارة سياسيّة ديمقراطيّة تشاركيّة تولي الحقوق الأساسيّة كلّ أهميّتها. ولا توجد مؤشّرات توجّه إلى الاقتناع بتغيّر

26 ـ مقابلة مع ريتا فرج، 2 مايو 2020.

المفاهيم، ولا بتصوّر أسباب تسهم في تحقيق جودة الحياة. مَوَاطِنُ الحرب في العالم العربي مواطن مكبّلة بتاريخ ديني وسياسي وقبليّ وعرقي ثقيل للغاية، وستبقى بموجب ذلك الدعوات القوميّة راسخة ردّاً على سياسات التدخّل في الشؤون المحلّيّة. وسيصبح العنف من أدوات المقاومة، وسيسمّى «حركة وطنيّة» أو «جهادا» عند الاقتضاء، ما دامت النظرة إلى الإنسان لم ترتبط بالحرّيات والحقوق أصلاً. وفي هذا السياق ستنهض «الهويّة» بوصفها مفهوماً مصيريّاً بوظيفة التشريع لتلك النظرة ووسائلها العمليّة. وستكون الرحلة إلى انتقال ديمقراطي حقيقي متعثّرة وطويلة، لا سيما إذا تردّد بين العربي أمر الاستثناء الثقافي والحضاري.

اقتناعنا بعد فيروس الكورونا (أو ضرورة مساكنته): أنّ الإنسانيّة اكتسبت وعياً جديداً ووضعاً جديداً: الوعي بعدم التفاوت في مواجهة الوباء، فكلّ الأجساد رهينة الموت، وقد عجز الطبّ أو قد تعجز التلاقيح المنتظرة عن تأمين السلامة.

أمّا في بلد مثل تونس ـ وهو بحسب تقدير المهتمّين والمؤسّسات الدوليّة النموذج الأصلح الذي عليه التعويل في إنجاح الثورات العربيّة على الاستبداد ـ فارتباكه أشهر من أن يفصّل: ارتباك في تحقيق ديمقراطيّة تشاركيّة اجتماعيّة كما ظنّ الناس؛ وارتباك في تحقيق المواطنة بأجزائها كلّها، وإنْ أعلن عن دستور لا يخلو بعدُ من حاجة إلى التنقيح، وارتباك في تحقيق مدنيّة الدولة والمجتمع، وارتباك في اختيار المنوال الاقتصادي المناسب لأحوال البلاد وثرواتها. ولئن أشرقت الحريّة عامّة على لسان الداني والقاصي، فإنّ جوهر التفكير العام والقرار السياسي الصادر عن الجهات الكثيرة ما زالا دون الالتزام بمنطوق الدستور وشعارات الدولة المدنيّة. والسبب البيّن في ذلك كلّه ما عُدَّ من فضيلة «التوافق»، وإن كان بين المتناقضات، وما شذّ عن المراقبة من أمر «الموازي» للدولة، وعُدّ مع ذلك فساداً عجزت الدولة نفسها ـ بكلّ ما تملك من قوانين ـ عن مجابهته. وأمام هذا المأزق يتّجه هذا النموذج الديمقراطي من بين سائر البلدان العربيّة إلى انتقال عسير لعمق المعضلة الدينيّة التي لم تراجع أصلاً، وكان همّ الحاكمين الذين وصلوا بالانتخاب إلى الحكم هو الحكم من أجل تأسيس

الخلافة وأسلمة المجتمع. ولولا نشاط المجتمع المدنيّ ومؤسّساته ـ وهو غير ما يحدث بمصر مثلاً ـ لكان الانحدار إلى ارتباك أشدّ في سائر المجالات، وأهمّها التعليم والاقتصاد. وقد بدأت تباشير الأسلمة بالماليّة الإسلاميّة مثلاً، وبتغيير البرامج التعليميّة، والوقوف ضدّ المساواة بين الجنسين مساواة حقوقيّة تامّة، وهلمّ جرّا.

نحسب أنّ فيروس الكورونا قد فاجأ العرب والمسلمين بحقيقة العلمنة مرّة أخرى. ولو قارنا بين حملة بونابرت على مصر واكتشاف العرب للحضارة المدنيّة الأوروبيّة من ناحية، وما تركت الجائحة من أثر من ناحية أخرى؛ لوجدنا أنّ الفرق الأساسي لا يخرج عن الاقتناع اليوم بكون الإنسانيّة واحدة في مجابهة الخطر الوبائي الداهم، يستوي في ذلك كل الأجناس والأديان والأعراق والأمم. ومن ثمّ اكتشف المسلمون أنّهم غير محميين بشيءٍ يخصّهم، ولم يعد لهم من واجب مدنيّ مشترك غير التآلف مع بني جنسهم. والأخلاق هنا مقدّمة على أيّ جانب آخر ممّا يكوّن الذات البشريّة. وهل ثمة أبلغ من غلق المساجد، وتعليق الحجّ والعمرة، وإفراغ البيت المعمور تماماً وتعطيل الطقوس في الكنائس والبيع وربّما الأديرة أيضاً؟! ولو كان بإمكان «الإسلام السياسي» الحاكم أن يعطّل هذه الإجراءات الدوليّة الصادرة عن المنظمة العالميّة للصحّة وغيرها من المؤسّسات الصحّيّة، وتغذية المخيال بسرديّة دينيّة، لفعل. ولكنّ بداهة الحقيقة كانت قاصمة، وكان التشبّث بالحكم وتولّي مقاليد البلاد أمراً أهمّ عند الإسلاميين الحاكمين من التشبّث بالطقوس والشعائر.

الحروب تشكيل جديد للمجتمعات؛ ولكنّه تشكيل بإرادات مختلفة أو قل: مصالح دوليّة وإقليميّة متناحرة، ولا يشقى بما يصيب الناس من وزر الحروب إلّا أهلها. أمّا المستثمرون فيها وبها فإنّهم في جلّ الأحوال أهل كسب. وهل تقام الديمقراطيات ـ أيّا كان نوعها ـ بالحروب؟ قد يسلّم المرء بسير مثل سوريا إلى انتقال ديمقراطي لو نجم من قلب المجتمع ذاته حركة مقاومة للنظام العلوي المستبدّ كما يصفه المتابعون للشأن السوري؛ ولكنّ دول الجوار من ناحية، وتنافس الأمريكيين والروس وتركيا وإيران على المنطقة من ناحية

أخرى، وفساد العلاقات العربيّة مع سوريا ـ شوّشت المشهد العام، وأصبح الداخل حريصاً على الاستقلال بإرادته، وإن كان ذلك بقارب الديمقراطيّة الوهميّة. أمّا بلد كليبيا فهو إلى حدّ الآن بين أيدي القبائل، والمرتزقة، وأهل المصالح الناجمة من بلد ذي خيرات عظيمة مفتوحة للأقوى. ويعلم الله وحده آفاق القسمة التي ترتضيها الدول العظمى لضمان مصالحها... وفي كلّ الأحوال سيشهد الأفق الليبي تغيّرات عميقة في إدارة الحكم، وتنظيم الجيش، وإنشاء المؤسّسات وفق وصايا الأُمم المتّحدة، وسيوصف مرّة أخرى ذاك كلّه بفضيلة «الربيع العربي». ولئن تحصّنت الجزائر فيما يخصّها بانتخابات رئاسيّة وتشريعيّة ودستور ما زال الجزائريّون في طور نقده بين الفينة والأخرى؛ فإنّ هذا القطر من بلاد الغرب الإسلامي واعٍ بأثر ما يحدث بجواره من التغيّرات السريعة. وسنوات الجمر التي عرفها الجزائريّون كفيلة برفض «الإسلام السياسي» بشدّة المجرّب لا بوهم المنظّر. نحسب أنّ الجزائر ستكسب المنطقة شيئاً من امتناع الانحدار إلى الأسوأ بما توفّره من ديمقراطيّة مقيّدة لضمان الحرّيات الدنيا وتعقّب الحركات الشعبيّة منعاً لانفلاتها. لم يقرّب فيروس الكورونا المعالج في صمت بالجزائر ما بين تونس والجزائر والمغرب. والأمر على حاله لخطورة التوابع التي قد يحدثها الربيع العربي، وتدخّل الدول العظمى باسم الديمقراطيّة وحقوق الإنسان في الشأن الداخلي. والجزائريّون واعون من جهةٍ أخرى بالخطر القادم من جهة إفريقيا حيث ظهرت الحركات الإسلاميّة المتشدّدة والمنادية بحمل الناس على الخلافة. ويمثل «بوكوحرام» صيغة من الصيغ التي أرهقت محضنه والدول العظمى التي تتابعه ضماناً لمصالحها.

الحروب تشكيل جديد للمجتمعات؛ ولكنّه تشكيل بإرادات مختلفة أو قل: مصالح دوليّة وإقليميّة متناحرة، ولا يشقى بما يصيب الناس من وزر الحروب إلّا أهلها. أمّا المستثمرون فيها وبها فإنّهم في جلّ الأحوال أهل كسب.

بقيت ملاحظة أخيرة تخصّ هجرة الكفاءات العربيّة؛ فلو نظرنا في الإحصائيات المتغيرة يوميّاً لوقفنا على وضع آخر شديد الخطورة، وهو أن تفقد بلاد مثل تونس أو ليبيا ـ كما فقدت الجزائر من قبل ـ كفاءاتها الطبيّة

والهندسيّة وعلماءها. وبذلك نحسب أنّ بعض البلاد العربيّة هي بصدد الخضوع إلى حالة من التفقير الفكري والمهني الشديد. والسؤال المثير: كيف ستبني هذه المجتمعات نخبتها الجديدة بعد أن فقدت كفاءاتها العالية المهاجرة والمستقرّة في أوروبا وغيرها؟ ثمّ كيف يمكن لأولئك المهاجرين من ذوي الكفاءة العاليّة أن ينخرطوا في مجتمعات ذات تاريخ مختلف عن مجتمع النشأة والتربية؟! وأيّ انتماء سيحقّقون؟ هل يخوّل لنا وضع الهجرة أن نفكّر في تجاذبات جديدة ومن نوعٍ آخر تسبّبها أجيال المهاجرين من البلدان المتدحرجة إلى مزيد التأزم أو حتّى السقوط؟

لا معنى لهذه التطوّرات التي قد تشهدها بعض البلدان والمجتمعات التي ذكرناها إلّا إذا وضعت في نسقها الأشمل من بلدان العالم برمّته. وها نحن أولاء نواجه السؤال الخطير مرّة أخرى: إلى أين يسير العالم؟[27] هل العالم على وشك السقوط؟[28] هل نحن على وشك حقبة حضاريّة جديدة لا تخصّ العرب والمسلمين بقدر ما تهمّ الإنسانيّة قاطبة؟

يعرض ماتيو تايلر (Matthew Taylor)[29] المدير التنفيذي للجمعيّة الملكيّة للفنون والمصنوعات والتجارة (RAS) ستّة تأثيرات مهمّة تتعلّق كلّها بمسائل الشغل والتدبير السياسي، ويصل في النقطة السادسة إلى ضرورة الاستفادة من الأزمة لجديّتها، استفادة تقتضي «قيادة معولمة» (Global leadership) قبل أن تحلّ الكارثة. وكأنّه يشير إلى ما نادى به غيره من ضرورة التضامن بين شعوب العالم على درء الأسوأ. هذا مقبول في حدّ ذاته وواجب أخلاقيّ صميم لتنجو الإنسانيّة من خطر الانقراض بالوباء وغيره من الكوارث الممكنة التي يحذّر منها العلماء. ويجب أن نتذكّر مرّة أخرى أنّ الوباء لم يستثن أحداً، ولكنّه أشاع موجة أخرى من التفاوت الاجتماعي، والتمييز بين الفئات، كما

27 ـ Susan George, Jean-Pierre Dupuy, Serge Latouche et Yves Cochet, Où va le monde? 2012-2022: une décennie au devant des catastrophes, Fayard/Mille et une nuits, 15 février 2012 (ISBN 9782755504941, lire en ligne [archive]).

28 ـ Yves Cochet, Devant l'effondrement. Essai de collapsologie, Paris, Les Liens qui libèrent, 2019 (ISBN 979-1-0209-0737-0).

29 ـ https://www.thersa.org/blog/matthew-taylor/2020/03/cornavirus-economy-changes

أحدث موجة من إنكار الآخــر والانعزال عنه[30]. يشــاهد بالعيان في أكثر من مجتمع يعاني مواطنوه من الرعاية الصحّية، وارتباك الدول في تلبية مطالب الملايين من الناس الذين فقدوا موارد الكسب والاضطلاع بنفقاتهم اليوميّة. العالم مقبل حتماً على حقبة حضاريّة متسارعة النسق: **عالم رقميّ** يبدّل شكل المدرســة والجامعة، وصيغ التعلم القديمة، وخارطة الأُمم برمّتها، من حيث العلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، ومن وراء ذلك القيميّة ومسألة الهويّــة[31]. ولن يفيد أمر الهويّة ولا العزلة عن ســائر الإنســانيّة التي تواجه الخطر ذاته، والطبيعة نفســها التي اتّخذتها الحياة. **وعالم بلا حدود أمميّة صارمة**، مهما كانت المراقبة الأمنيّة والعسكريّة. وهنا تكتسب **الهجرة وحركات البشر** أهمّية كبرى في تغيير الأنساق الاجتماعيّة التي تستوطنها. ولا شــكّ في أنّ الحضــارة التــي نقبل عليهــا تبني وظائفهــا ومعنى وجودهــا أصلاً بتشــكيل قانوني وإجرائــي للمؤسّســات الدوليّة التي تمثّــل كافّة شعوب العالم، وتعبّر عن أصواتها المختلفة بعد أن يتضاءل أثر الإيديولوجيّــات الموروثة. وهو عالم مقبل على أن **تتراجع فيه الدولة التسلّطيّة** بتنامي الحرّيات، وتشبّث الشعوب بمبدأ العدل، والقوانين التي تنصّ عليها دساتيرها. وهو عالم مقبل على **علمنة أوســع**، وذات أثر أشــمل، دون تقويض للروحانيّات، التي ستتّخذ من أوجاع الحروب الممكنة والتنافس الطبيعي بين الأُمم مجالاً للازدهار، ولكنّها ستبقى في حيّز **الترجمة الفرديّة** بما يغذّي التقاليد المحلّية، والسُّنن الجارية في أقطار المعمورة، وســيتقبّل ذلك كلّه على أنّه من **إبداع الإنســانيّة وتنوّع تجاربها**. ويصاغ من ذلك كلّه ومن وعي الناس بالمخاطر الممكنة **إبداع فنّي**

يشاهد بالعيان في أكثر من مجتمع يعاني مواطنوه من الرعاية الصحّية، وارتباك الدول في تلبية مطالب الملايين من الناس الذين فقدوا موارد الكسب والاضطلاع بنفقاتهم اليوميّة. العالم مقبل حتماً على حقبة حضاريّة متسارعة النسق.

30 - Gerd Trogeman, COVID-19 will change our lives and our way of working in. https://undp.medium.com/covid-19-will-change-our-lives-and-our-way-of-working-cf259dd81cc2

31 - Ibid.

أصيل، يسمو إلى تعبير النفوس عن قيمها الوجوديّة ووجاهة الكينوتة أصلاً. ويكفي أن نلاحظ في هذا المقام ما جادت به جائحة الكورونا من إبداع فلسفي وفكريّ إلى حدّ الآن.

ولو عدنا بالتفكير إلى العالم الإسلامي والعربي فحسبنا أنّ المسألة الدينيّة تبقى على محكّ المراجعة النقديّة، تماماً ككلّ الروحانيّات في العالم. لم يعد بالإمكان إلّا أن يُنظر إلى الأمراض وإلى الجوائح، وإلى فيروس الكورونا ـ فضلاً عمّا هو أخطر منها، ممّا يسبّبه الإنسان بتوحّش المال في يده، ودوسه على الحقوق الإنسانيّة المحقّقة لمواطنته ـ على أنّها من صنع الإنسان، **لا على أنّها** «**كفّارة**» **كما قال المحدّثون** وفصّلت كتب التراث على لسان القدامى؛ لأنّ الأجدى أن يتوقّى المسلم والإنسان عموماً إحداث الكوارث، ويمنع الآفات بذاك «العقد الاجتماعي» و«العقد مع الطبيعة»؛ تحقيقاً لمبدأ التعمير، ومشاركة منه في أخلاقيّة إنسانيّة يستوي فيها المتديّن وغيره من شعوب العالم.

هل نحن إذن بصدد قيام «إنسانيّة المستقبل» بالمعنى الذي رسمه فتحي المسكيني؟ نرجّح ذلك على صعوبته، ويبقى الأمل ساكن كلّ حيّ، وإلا ما كان لوجوده معنى أصلاً.

خاتمة: عودة إلى ابن خلدون فيما يقع من كثرة الموتان

لئن شرح ابن خلدون ظهور الجوائح وكثرة الموتان بـ«فساد الهواء وكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة»، ووصله بما «يقع آخر الدولة»، فإنّه ـ وهو الفقيه المالكي أيضاً ـ لم يعدّ قطّ الطاعون والمرض والجائحة المسبّبة للموت «كفّارة». ولم يعدّ تلك الآفات من جند اللّه. ولو كان ابن خلدون من أبناء هذا العصر وشهد ما شهد من أمر الليبرالية الجديدة المتوحّشة وما سبّبته من انتهاك حرمة الطبيعة وانتظام البيئة وتخريب التوازن بين حياة الإنسان ومحيطه لأقرّ بأنّ الجائحة وكثرة الموتان بيننا مؤذنتان بزوالها. لعلّ في مقالنا شيئاً من الرجاء المؤمن بقدرة الإنسان على الخير، وذاك من وظائف الديانات كلّها، متى أرادت الترقّي بالذات البشريّة إلى مرتبة الحرّية والمسؤوليّة أصلاً.